سرُّ القُبَّعَة ـ ١٠ ـ

وحدَّثني صاحب سرِّ (م) باشا ، قال : نَجَمَتْ في مصر حركةٌ بِعقِب أيام البدعة التُّركية ، حين لم تبق لشيءٍ هناك قاعدةٌ إلا القاعدةَ الواحدةَ الَّتي تقرِّرها المشانق . . . فمن أبى أن يخلع العمامةَ عن رأسه ؛ خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (٨) هذه مشنقةً ، فعُلِّق فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القبَّعة في تركيا غطاءَ للرَّأس ، قد جاءت بعد نَزَعاتٍ من مثلها ، كما يجيء الحِذاءُ في آخر ما يلبَس اللابس ، فلم يشكَّ أحدٌ أنَّها ليست قبَّعةً على الرأس أكثر ممَّا هي طريقةٌ لتربية الرَّأسِ المسلم تربيةً جديدةً ، ليس فيها رَكعةٌ ، ولا سَجْدة ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبَّعةَ على رأس الزِّنجيِّ ، والهمَجيِّ ، وعلى رأس الأبله ، والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسودَ أبيض ، ولا عرفناه نقلت همجيّاً عن طبعه ، ولا زعم أحدٌ أنَّها أكملت العقلَ النَّاقص ، أو ردَّت العقل الذَّاهب ، أو انقلبت آلةً لحلِّ مشكلات الرَّأس البليد ، أو غَضِبَت الطَّبيعةَ شيئاً ، وقالت : هذا لحاملي دون حامل الطَّربوش ، والعمامة .

وقد احتجُّوا يومئذٍ لصاحب تلك البدعة : أنَّه لا يرى الوجهَ إلا المدنيَّة ، ولا يعرف المدنيَّةَ إلا مدنيةَ أوربة ، فهو يمتَثِلُها ، كما هي في حسناتها ، وسيِّئاتها ، وما يَحلُّ وما يَحْرُم ، وما يكون في حاجةٍ إليه وما يكون في غنىً عنه ؛ حتَّى لو أنَّ الأوربيين كانوا عُوراً بالطَّبيعة ؛ لجعل هو قومَه عوراً بالصِّناعة ؛ ليشبهوا الأوربيين . . . نعم إنَّها حجَّةٌ تامَّة لولا نقصٌ قليل في البرهان ، يمكن تلافيه بإخراج طبعةٍ جديدةٍ من كتب الفُتوح العثمانيَّة ، يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغَاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبَّعاتٍ ، ليشبهوا الأوربيين .

* * *

قال صاحب السِّر : وتهوَّر في هذه الضَّلالة رَهْطٌ[1] من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله)

---

(١) « رهط » : هم ما دون العشرة من الرجال .

يطلب رأيه ، فكان رأيُه (لا) بمدِّ الألِف . . . وعهد إليَّ بعضهم أن أسأل الباشا ، فقال :

ويْحهم ! ألا يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلِّدين للتقليد نفسه ؟ إنَّ هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل ، فكأنَّها بدعتان[١] . ثمَّ ضحك الباشا ، وقال : كان في القديم رجل سمع أنَّ البصل بالخلِّ نافعٌ للصَّفراء ، فذهب إلى بستان يملكه ، وقال لوكيله : ازرع لي بصلاً بخلٍّ . . . هكذا يريدون من القبعات : أن تُخْرِج لهم تُركاً بأوربيِّين .

ليست هذه القبَّعة في تركيا هي القبَّعة ، بل هي كلمةُ سبٍّ للعرب وردٌّ على الإسلام ، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيِّنةً ، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحْدَه ، وهي إعلانٌ سياسيٌّ بالمناوأة ، والمخالفةِ ، والانحراف عنَّا واطِّراحِنا ، فإنَّ الذي يخرج من أُمَّته لا يخرج منها وهو في ثيابها ، وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج في القبَّعة دون غيرها ممَّا يجري فيه التَّقليدُ ، أو يُبدِعُه الابتكار ؛ وإلا فأيُّ سرٍّ في هذه القبَّعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخيَّاطين ؟!

ها هنا سيفٌ أراد أن يكون مِقصّاً ، فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتَّار ، فأجاد ، وأبدع ، وأكبره النَّاسُ ، وأعظموه ؛ ثُمَّ صنع ما يصنع المِقَصُّ ، فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطالُ ، والخيَّاطون جميعاً ؟

أَكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث في التَّقليد الأعمى ، وألا يَحيا الشَّرقيُّ إلا مُستعبَداً ينتظر في كلِّ أموره مَن يقول له : اشْرَعْ لي . . . ؟ إنْ بَحَثْنَا ، فلْنبحثْ في زِيٍّ جديد نتميَّز به ، فتكون القُوَى الكامنة فينا ، وفي طبيعة أرضنا ، وجوِّنا هي التي اخترعتْ لظاهِرها ما يجعله ظاهرَها ، كما يُخرج زَوْرُ[٢] الأسد لِبْدَةَ[٣] الأسد غايةً في المنفعةِ ، والجمالِ ، والملاءمة .

أنا ألبس ما شئت ، ولكنِّي عند القُبَّعة أجدُ حدّاً تقفُ إليه ذاتيَّتي الفرديَّةُ ، فلا أرى ثَمَّةَ موضعَ انفراد ، ولكنْ موضع مشاكلةٍ ، ولا أعرف صفةَ منفعةٍ لي ، بل

---

(١) الأصل تقليد تركيا لأوربة ، وهذه بدعة ؛ فتقليدنا لتركيا بدعةٌ أسخف من الأولى . (ع).

(٢) « زور » : هو وسط الصَّدر ، أو ملتقى عظام الصَّدر حيث اجتمعت .

(٣) « لبدة » : اللبدة : الشعر المتراكب بين كتفي الأسد .

صفةَ حقيقةٍ منِّي ، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصيرُ به النَّوعُ إلى الجنس ، والواحدُ إلى الجماعة . وما دمتُ مسلماً أصلِّي ، وأركع ، وأسجد ، فالقُبَّعةُ نفسها تقول لي : دعني ، فلستُ لك !

وهؤلاء الرِّجالُ الَّذين لبسوها في مصرَ ، إنَّما اشتقُّوها من المصدر نفسِ المصدر الَّذي يَخرج منه التهتُّكُ في النِّساء ، وكلاهما مَنزَعٌ من المخالفة ، وكلاهما ضدٌّ من صفةٍ اجتماعيَّةٍ تقوم بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامَّةٌ . وليس يَعدم قائلٌ وجهاً من القول في تزيين القبَّعة ، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها ، غير أنَّ المذاهب الفلسفيَّة لا يُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أنَّ حياء المرأة ، وعفَّتَها إنْ هما إلا رذيلتان في الفنِّ . . . وإن هما إلا مرضٌ ، وضعفٌ ، وإن هما إلا كيت ، وكيت ، ثُمَّ تنتهي الفلسفة إلى عدِّهما من البلاهة ، والغفلة ، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدُّنيا أن تُقْحِمَ في كتاب الصَّلاة مثلاً فصلاً في . . . في . . . في الدَّعارة .

لا يهولنَّك ما أقرِّر لك : من أنَّ القبَّعة الأوربيَّة على رأس المسلم المصريِّ ، تهتُّكٌ أخلاقيٌّ ، أو سياسيٌّ ، أو دينيٌّ ، أو من هذهِ كلِّها معاً ، فإنَّك لتعلم أنَّ الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريبٍ ، بعد أن تهتَّكت الأخلاق الشَّرقية الكريمة وتحلَّل أكثر عُقَدِها ، وبعد أن قاربت الحرِّيَّةُ العصرية بين النَّقائض حتَّى كادت تختلط الحدودُ اللُّغوية ؛ فحريَّة المنفعة مثلاً تجعل الصَّادقَ ، والكاذبَ بمعنىً واحدٍ ، فلا يقال : إلا أنَّه وجد منفعتَه ، فصدق ، ووجد منفعته ، فكذب ؛ وعند الحرِّيَّة العصريَّة : أنَّه ما فرَّق بين اللفظين وجعل لكلٍّ منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء ، وفضيلةُ القدماء ، ودينُ القدماء . وهذه الثَّلاثة : الجهل ، والفضيلة ، والدِّين هي أيضاً في المعجم اللُّغويِّ الفلسفيِّ الجديد مترادِفاتٌ لمعنىً واحدٍ ، هو الاستعباد ، أو الوهم ، أو الخرافة .

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعاني ؛ كان طبيعيّاً أن يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ ، وأن يَحلَّ معنىً في موضع معنىً غيره ، وأصبح الباطلُ باطلاً بسببٍ ، وحقّاً بسببٍ آخر ، فلا يحكم النَّاسَ إلا مجموعةٌ من الأخلاق المتنافرة ، تجعل كلَّ حقيقةٍ في الأرض شبهةً مزوَّرةً عند من لا تكون من أهوائه ، ونزَعاته ، فيحتاج النَّاس بالضَّرورة إلى قوَّةٍ تفصل بينهم فصلاً مسلَّحاً ، فيكسِبون القانونَ بمدنيَّتهم قوَّةً همجيَّةً تضطره أن

يُعِدَّ للوحشية الإنسانيَّة ، وتدفعُ هذه الوحشيَّة أن تُعِدَّ له .

ومن اختلاط الحدود تجيء القبَّعةُ على رأس المسلم ، وما هي إلا حدٌّ يطمِسُ حدّاً ، وفكرةٌ تهزم فكرةً ، ورذيلةٌ تقول لفضيلةٍ : ها أنذا قد جئتُ فاذهبي .

ما هو الأكبر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصِّغر ؟ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكبر ؟ إنَّها الفوضى كما ترى ، ما دام الحدُّ لا موضع له في التمييز ، ولا مقرَّ له في العُرف ، ولا فصلَ به في العادة ، ومن هنا كان الدِّينُ عند أقوامٍ أكبرَ كلمات الإنسانية في عامَّة لغاتها ، وأملأها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها ، وأفرغَها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنَّه يسع الاجتماعَ الإنساني ، وهو محدودٌ بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأنَّ الاجتماع لا يسعه ، فلا حدَّ له ، وكأنَّه معنى مُتوهَّم ، لا وجود له إلا في أحرف كلمته .

فجماعة القبَّعة لا يرون لأنفسهم حدّاً يحدُّونها به من أخلاقنا ، أو ديننا ، أو شرقيَّتنا ، وقد مَرَقُوا من كلِّ ذلك ، وأصبحوا لا يرون في زيِّنا الوطنيِّ ما فيه من قوَّة السرِّ الخفيِّ الذي يلهمنا ما أودعه التَّاريخُ من قوميَّتنا ، ومعاني أسلافنا .

وأنا أعرف أنَّ منَّا قوماً يرى أحدُهم في ظنِّ نفسه أنَّه قانونٌ من قوانين التطوُّر ؛ فهو فيما يلابسُه لا ينظر إلى أنَّه واحدٌ من النَّاس ، بل واحدٌ من النَّواميس . . . ومن هنا الثِّقَل ، والدَّعوى الفارغةُ ، وما هو أكبر من الثِّقل ، وفراغ الدَّعوى . وإنَّه لحقٌّ أن يكونَ بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبحَ ما في الباطل أن يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسَه نبيّاً .

واعلم : أنَّ كثيراً مما يزيِّنونه للشرقيِّ من رذائل المدنيَّة الأوربيَّة إن هو إلا منطقُ شهوات في جملته ، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلَّم عن الطَّعام ، فترى كلاماً تحته معانٍ ، ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها .

* * *